التراث والحداثة واشكاليات التواصل الحضاري

الدكتور عبد الغني عماد

" كل مذهبين مختلفين أما أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً، وأما أن يكون كلاهما كاذباً وأما أن يكون كلاهما يؤديان الى معنى واحد، وهو الحقيقة.

فإذا تحقق في البحث وامعن في النظر، ظهر الاتفاق وانتهى الخلاف. "

"ابن الهيثم"

هل يمكن لحضارة معينة أن تأخذ من حضارة أخرى مختلفة، دون أن يكون في هذا الأخذ خطر على المتلقي في أن تنمحي هويته وتذوب في هوية من جاء منه العطاء؟

هذا هو أصل الإشكالية التي نحن بصددها. فكلما طرح موضوع التراث أو الأصالة، ينبري أنصار الحداثة والمعاصرة الى القول ان إحياء التراث والعودة للأصالة يعني الابتعاد عن التقدم والحضارة ويعني الجمود والتخلف. وكلما طرح موضوع الحداثة والعصرنة، ينبري أنصار التراث والأصالة الى القول ان هذا يعني التغريب وبالتالي الانفصال عن التراث والتنكر للهوية والدين.

لا شك ان مسألة الأصالة والمعاصرة، أو ما يسمى "بالتراث والحداثة" او "التقليد والتجديد" قد أثارت نقاشاً كثيراً وأسالت حبراً غزيراً، فقد طرحت هذه المسألة في اطار السؤال النهضوي المحوري. السؤال الذي انتشر بالصيغة التالية : لماذا تأخرنا نحن وتقدم غيرنا؟

والمسألة ما كانت لتطرح على هذه الصورة لو لم يكن هناك شيء جديد أخذ يشق طريقه بفعل الوعي والشعور بالغلبة والقهر نتيجة الصدمة التي حدثت بعد اللقاء غير المتكافئ مع أوروبا في القرن التاسع عشر.

ومما لا شك فيه ان هذه الإشكالية ما كانت لتطرح، وتجد صداها في الفكر العربي، لو لم يكن الاحساس بضرورة التغيير والتقدم قد شق طريقه، واصطدم منذ المحاولة الأولى بعقبات وحواجز استدعت حواراً حامياً يستهدف الخروج من دائرة التخلف والانحطاط.

الاشكالية القديمة – الجديدة:

ان القارئ المدقق للفكر العربي، يلحظ تشابهاً في موقف متكرر، يحدث كلما التقـى هـذا الفكر بثقافة وافدة اليه من الخارج، فهو ما ان يقدم عليها ويأخذ منها حتـى تواجهـه ثلاثـة مواقف:

1 – موقف يخشى على الهوية والتراث من الضياع، فيعلن معارضته للثقافة الوافدة الدخيلـة، فيقدم على مناقشتها، ملتمساً فيها مواضع ضعف وتناقض، أو مواضع تعارض مع الـشريعة الإسلامية.

2 – موقف يتصدى للدفاع عن الثقافة الوافدة، يؤسس دفاعه في أغلب الحالات، على أنـه لا تعارض بين الأفكار الجديدة والشريعة الإسلامية. معتبراً ان تلك الأفكار من شأنها أن تطـور وتغذي وتفتح آفاقاً للخلق والابداع.

3 – موقف توفيقي انتقائي يبغي إقامة كيان ثقافي يجمع بين مقومات الطرفين في صيغة ثالثة.

وقد حصل مثل هذه المواقف في مرحلتين، الأولى في العـصر العباسـي حيـث تعـرف المسلمون على الثقافة والفلسفة اليونانية بشكل واسع مع حركة الترجمة في ذلك الحين، والثانية في بداية القرن الماضي حين اصطدم المسلمون والعرب بالتفوق الاوروبي. ففي كلتا الحالتين، فتحت النوافذ بغير تحفظ امام ثقافة جديدة آتية من الخارج تنتمي لحـضارة مختلفـة. وفـي الحالتين كان النقل على نطاق واسع، بتدبير وتشجيع من الدولة. فالشبه قريب بين:

أ – "دار الحكمة" التي أنشأها الخليفة المأمون في بغداد مع بدايات القرن التاسع الميلادي.

ب – و"مدرسة الألسن" التي أنشأها محمد علي باشا في مصر في الثلـث الأول مـن القـرن التاسع عشر، وجعل الأشراف عليها لرفاعة الطهطاوي.

وفي الحالتين كانت المهمة نقل وترجمة ما يمكن نقله من الفكر والفلسفة اليونانية القديمـة، أو الفكر الأوروبي الحديث.

وفي الحالتين، قديماً وحديثاً، تغلغل الفكر المنقول، وظهر أثره واضحاً فيما يكتب ويقـال، حتى خاف البعض من أثر ذلك على الطابع الأصيل للشخصية العربية الإسلامية، فنهض مـن كبار المفكرين من يقاومه ويبين ما انطوى عليه من تناقض.

فقديماً في المرحلة العباسية بلغت المقاومة أشدها مع حجة الإسلام الإمام الغزالـي عنـدما وضع كتابه "تهافت الفلاسفة" حيث أظهر مواضع التناقض في الفلسفة اليونانيـة كمـا أراد أن يظهر الخطر الذي يتهدد التراث الإسلامي بتأثير تلك الفلسفة.

وحديثاً بلغت المقاومة للفكر الوافد أشدها أيضاً مع جمال الدين الأفغاني بكتابه "الرد علـى الدهريين" – أي أصحاب الفلسفة المادية اذ اضطلع الافغاني وبعده الشيخ محمد عبده بالمهمـة نفسها وهي أن يناقش المذاهب المادية التي شاعت في اوروبا، ومنها نظرية النشوء والارتقاء التي وجدت لها أنصاراً في قلب العالم العربي والإسلامي. وأراد بهذه المناقشة اظهار مواضع الخطأ في هذه النظرية، وأن يبين في نفس الوقت خطورة تلك المذاهب على التراث والفكـر الإسلامي.

وفي الحالتين لم تبقَ هذه المقاومة دون أن يتصدى لها مؤيدو الثقافة الوافدة.

- فقد قامت مواجهة بين "تهافت الفلاسفة" ورائعة ابن رشد الفلسفية "تهافـت التهافـت". وتعتبر هذه المواجهة نموذجاً يتخطى قضية كتاب اصدره صاحبه ليفنّـد بـه كتابـاً اصدره مؤلف آخر. بل ان المعارضة التي نشأت بينهما، تعبـر فـي حقيقتهـا عـن نظريتين ثقافيتين هما أصل الإشكالية التي نحن بصددها، وهذا النقاش يعتبر نموذجـاً لذلك السجال الغني الذي دار في تلك الحقبة حول مسألة العقل والنقل بين "المعتزلـة" وخصومهم.
- كذلك في عصرنا الحديث، تصدى كثيرون لمن أراد مقاومة الأخذ عن الغرب فمقابل "محمد عبده" و "الافغاني" كان هناك "شبلي الشميل" الذي أخذ أفكاره عن "هكـسلي" و "سبنسر" في انكلترا، وكان مؤلفه الرئيسي ترجمة شرح "بـوخنر" الألمـاني لأفكـار "داروين". وعلى نفس الخط سار "فرح انطون" الذي خاض سجالاً قاسياً مـع الـشيخ محمد عبده، فالآراء التي أدلى بها كانت آراء "رينان" بأسلوبه الخاص. ذلك انه توخى وضع أسس دولة علمانية، حيث يمكن فصل الجوهري عـن العرضـي فـي جميـع الأديان، وبالتالي فصل الزمني عن الروحي.

بل ان اديباً كطه حسين، على سبيل المثال لا الحصر، يدخل في هذا الحوار، فيدعو الـى اقتباس حضارة الغرب كاملة (بخيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها ومـا يكـره، وما يحمد منها وما يعاب). وهو يدعونا الى التعلم "كما يتعلم الأوروبي" والـشعور "كمـا يشعر الاوروبي" والحكم "كما يحكم" والعمل "كما يعمل".

ولكي تنجح دعوة التغريب والالتحاق بالقافلة الغربية، فهي تترافق دائماً مع تبريـرات تجعل الخلاف بين الثقافة الوافدة والتراث العربي خلافاً هامشياً وزمنياً، ذلك ان طه حسين يرى في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، ان الاوروبيين قد (اخذوا عنا هذه المـذاهب – في العلم والبحث – كما نأخذ عنهم اليوم، وساروا سيرتنا كما نسير نحن سيرتهم اليـوم، فالفرق بيننا وبينهم في حقيقة الأمر لا يتصل بطبائع الأشياء وجواهرهـا وانمـا يتـصل بالزمان، ليس غير..). اذن هي بضاعتنا ترد الينا بقالب غربي جديد! هكذا كان يرى قبل أن يغير رأيه.

والذي نلاحظه في استعراضنا للفكر العربي المعاصر ان المواجهة الفكرية بقيت فـي الاطار العام أسيرة هذا الاشكال التاريخي. فكراً وافداً يقتحم حياتنا الثقافية، فـي المقابـل ينهض من يقاومه دفعاً لخطره على الشخصية العربية الاسلامية. ثم لا يلبث ان يظهر من انصار الجديد من يدافع عن الفكر الوافد بحجة انه مصدر قوة لا مصدر ضعف.

الملاحظة الثانية التي يمكن تسجيلها ان الفكر المتمسك بالأصالة والتـراث بقـي مـن الناحية العملية هو الأكثر رسوخاً وتأثيراً في الفكر والوجدان العربي والذاكرة التاريخيـة للأمة. فالطروحات النقدية، والجداليات الفكرية بين الغزالي وابن رشد انتهت الى رسـوخ الغزالي كمرجعية ثقافية وفكرية ولا تزال تفعل فعلها في الذاكرة التاريخية وفي الذهنيـة العربية المعاصرة. بينما كادت تقتصر أهمية ابن رشد على الغرب عن طريـق اسـتعادة شروحه للفلسفة الارسطية. وينسحب هذا الأمر على الإمام محمد عبده والأفغاني فلا تزال الطروحات والأفكار التي قدماها محل اهتمام دارسي الفكر العربي المعاصر.

- **<u>من الانتقائية الى العقلانية:</u>**

المشكلة المأزقية هي معاناة الفكر العربي السياسي خلال العقدين الاخيرين من أزمـة حادة تظهر من خلال التشبث الجامد بالمنطلقات العقائدية والعجز عن تقديم مشروع سياسـي حضاري يسمح بالاطلالة الواعية على تحديات العصر في ظل التحولات الكبرى والمتسارعة التي يشهدها العالم.

ومن البديهي ان يتعاطى الغرب الرأسمالي مع المنطقة العربيـة مـن منظـور مـصالحه الاستراتيجية التي تقتضي باغتصاب الثروة العربية والحيلولة دون تحقيق أي مشروع توحيدي مركزي، اقتصادي او سياسي، وهذه البديهيات تقودنا الى طرح الاشكالية الجديدة التالية. كيف يمكن أن يقدم الغرب الرأسمالي مصادر القوة التي يملكها ويسيطر عليها الى الأمم الأخـرى

الراغبة في التحرر والتطور والخروج من مأزق التخلف والتبعية. وهل يمكن أن يقدم الغالب للمغلوب ما يتيح له التحرر من التبعية؟

وهل يناسبه أن يقدم المفاتيح لهذه الأمم كي تفك القيود التي تكبلها، من جهة وتكفل له من جهة أخرى تأبيد سيطرته واستغلاله، وديمومة هيمنته على الشعوب والأمم؟

هذا هو السؤال المأزقي الذي واجه أنصار الحداثة والتغريب الحالمين باللحاق والالتحاق بالمعسكر الغربي المنبهرين الى حد الدهشة بالتطور التكنولوجي والعلمي للغرب. فالمدى المسموح به للتوغل والأخذ بأسباب التقدم التكنولوجي محدودة بسقف معين، وخط أحمر.

ونحن لا ننفي الايجابيات التي حققها أنصار الحداثة الفكرية الغربية نتيجة لخوضهم تجارب تاريخية كبرى وهامة، على مستوى الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع، وعلى مستوى الأحزاب والأنظمة من جهة أخرى. الا ان المأزق الخطير الذي وصل اليه هؤلاء يتمثل في العجز عن استخلاص الحقائق التاريخية التي افضت الى الاحباطات والهزائم التي شهدها عالمنا العربي على امتداد هذا القرن. فالركض وراء الحداثة الفكرية الغربية ادخلهم في سباق على حلبة مصممة أساساً على غير مقاساتهم والحقيقة التاريخية التي افضت الى الهزائم والاحباطات تتجسد في غياب المشروع النهضوي الحضاري المرتكز على منظور حداثي تنويري.

أما التيار الذي تمسك بالأصالة والتراث وتحصن في قلاع المنجزات الماضية، واخذ يعيد انتاج الماضي بقوالب جديدة، بدون أن يقدم اجابات عصرية على معضلات تنتمي الى الزمن الحاضر في حقول الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع. هذا التيار اختزل كل المعضلات بالدعوة الى بناء الدولة الدينية.

ان الدعوة الى إعادة تقليد التجربة التاريخية للأمة، والسير على خطى الاجداد التي يعلنها أنصار التراث والأصالة لا تختلف منهجياً عن دعوة أنصار الحداثة الغربية الى تقليد تجربة الغرب والسير على خطى التكنولوجيا والتطور. فالمسألة عند الاثنين منهجياً هي تقليد واتباع.

ليست المشكلة بالمقولات الفكرية الغربية التي يستعيرها البعض من ليبيرالية وعلمانية وماركسية. لكن المشكلة بالحرفية والعقلية النصوصية التي يتعامل بها البعض مع هذه المقولات والامر ذاته فيما يخص المقولات الفكرية الدينية التي ما كانت سابقاً ولن تكون مشكلة حقيقية أمام العصرنة والحداثة والعقلانية، الا ان المشكلة هي بالعقلية الحرفية والنصوصية التي يتعامل بها البعض مع التجربة العربية الاسلامية.

ان منطق الجمود والعزلة الفكرية والتقليد الحرفي لا يساهم في اطلاق العقل نحو الاستفادة من مختلف المساهمات الفكرية البشرية على اختلافها وتنوعها. وبالتالي نحو قراءة مستنيرة معاصرة للتجربة التاريخية للأمة ولتجارب الأمم والشعوب الأخرى. ان تجارب "الآخرين" ومعاناتهم الحضارية لا تلغي تجربتنا "نحن" ومعاناتنا الحضارية. وبالتالي القراءة المستنيرة يجب ان تكون على مستويين: الذات والآخرين.

هل يعني مما تقدم ان هناك امكانية فعلية لصياغة المشروع الحضاري العربي الجديد انطلاقاً من ضرورة التلاقي بين الأصالة والحداثة؟

- **نحو قراءة جديدة في إشكالية قديمة.**

يواجه الفكر العربي المعاصر مشكلة الاختيار بين النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة وهو ما يعتبره البعض الطريق الوحيد لامتلاك التكنولوجيا. وبين النموذج التاريخي الحامل للارث العربي والاسلامي وهو ما يتعبره البعض الطريق الوحيد لاستعادة الدور واستئناف المسيرة الحضارية لأمة كانت في مقدمة الأمم.

بين هذين الموقفين يبرز ثالث، توفيقي انتقائي، يدعو الى الأخذ بأحسن ما في النموذجين: التراث والحداثة. أصحاب هذا الموقف التوفيقي كان لهم جهد مميز برز في اتجاهين:

1 – سعي جاد للتخفيف من شدة الميل الى التغرّب والتقليد الكامل للغرب.

2 – سعي جاد للتخفيف من شدة التعصب للخصوصية مع الدعوة للانفتاح على الآخر والحوار معه.

لقد كلفوا أنفسهم مهمة القيام بمصالحة قوامها التوفيق بين حضارة الغرب المعاصرة والتراث التاريخي العربي. والمعادلة التي سعى هؤلاء لتحقيقها :

- ان لا يكون اقتباس علوم الغرب وتقنياته وتجربته مشروطاً بالتخلي عن مقومات الشخصية العربية والاسلامية.
- وان لا يكون التمسك بالأصالة والتراث والخصوصية ذريعة للهروب الى الماضي ولرفض وسائل التقدم والتنمية والتطور.

حقق في البداية هذا الموقف التوفيقي بعض التقدم، وكسب بعض الأنصار. ولكن سرعان ما تبين ان هذا الطريق الثالث لم يكن سهلاً سلوكه. وبالتالي كانت النتائج مخيبة للآمال وذلك لسببين:

<u>الأول:</u> لأنهم ظنوا ان الغرب سيمنحهم العلم الذي بواسطته أصبحت أوروبا سيدة العالم.

الثاني: لأنهم لم ينتبهوا الى ان الاقتباس والاخذ عن الغرب أو "الآخر" عموماً، لم يعد حراً منفلتاً من أي شروط. كما كان الأمر في العصر العباسي، يوم كانت الأمـة فـي موقـع الغلبة، تقلّب الارث اليوناني الضخم فتأخذ ما تريد وتترك ما تريد.

ان الأخذ والاقتباس في حالة التبعية يخضع لشروط الغـالبين ولـيس لإرادة المغلـوبين. وبالتالي لا ينفع التشبه بابن رشد. فالغرب اليوم هو الذي يعين ويحـدد مـاذا ومتـى نأخـذ ونقتبس؟ وكمية ما نأخذه ونقتبسه وكيفيته؟ وبالتالي من المثالية الظن بأن الغرب سوف يسمح بالاستقلالية العلمية ما لم يفقد تفوقه واستلابه لارادة الشعوب في العالم الثالث.

وكما يقول محمد عابد الجابري انه من الناحية الواقعية لم نعد نملك حرية الاختيار بين مـا نأخذ وما نترك، منذ اصطدمنا بالنموذج الحضاري الغربي المعاصر. لقد فرض هذا النمـوذج نفسه علينا بوسائله هو منذ القرن الماضي وذلك حين أعاد صياغة واقعنـا بأشـكال وأنمـاط جديدة.

- فمن التنظيم التعليمي التربوي الجديد الى وضع تنظيم محدث لشؤون الاقتصاد وأجهزة الدولة، الى التبادل التجاري والصناعي غير المتكافئ الذي يفـرض علينـا التبعيـة الاقتصادية والاجتماعية بما يحوّل المنطقة الى سوق استهلاكية.
- ومن التدخل المباشر وغير المباشر بالشؤون المحلية بذريعة الدفاع عن حقوق الاقليات تارة أو حماية المصالح المشروعة والاقتصاد العالمي تـارة أخـرى، الـى الهيمنـة الاقتصادية والثقافية والسياسية.

أمام كل هذه التحولات وجدت الأمة نفسها أمام عملية تحديث استعماري قـسرية لـبعض القطاعات الأساسية في المجتمع وهي التي تهم المستعمر أكثر من غيرها. عملية تحـديث جرت بالقوة والقهر الخارجي وليس بفعل تطور اجتماعي تدريجي طبيعي.

هكذا أصبحت تلك القطاعات التي حدثها المستعمر وطورها تـشكل البنيـة الأساسـية للدولة العربية المعاصرة التي عرفناها وعشنا معها وفي ظلها. وربما كان هذا الأمر يفسّر ذلك الانقطاع وتلك الغربة بين المواطن والدولة.

خلاصة القول ان المسألة لم تعد اختياراً بين نهجين: الأصالة والمعاصرة. كما لم يعـد يجدي الهروب الى الموقف التوفيقي. فالمسألة أساساً لم تعد اختيـاراً حـراً بـل خيـاراً مفروضاً دفعت اليه الأمة بالقوة. فما حصل هو إعادة تشكيل وبناء لقطاعات وأنماط جديدة في المجتمع، جرى احداثها وفق رغبة الاوروبي وبما يضمن تفوقه "هو" وتخلفنا "نحـن". فأي تكافؤ في حوار المغلوب مع الغالب؟ أيختلف عن حوار الذئب والفريسة؟

- **ما تبقى من التراث:**

وكما اننا لم نختر ما هو حديث ومعاصر في مجتمعنا. فإننا في المقابل لم نختر مـا تبقـى لدينا وفينا من التراث. لم نختره لانه ارث. والانسان لا يختار ارثه كما لا يختار ماضيه وانما يحمله معه. يتمسك به ويحتمي داخله عندما يجد نفسه مهدداً، خاصة عندما يكون التهديد مـن حضارة مغايرة تهدد الهوية والتراث بالذوبان والضياع.

فهل ما تبقى فينا ولدينا من التراث يمثل الأصالة الحقيقية التي استندت عليها الأمة يوم بنت أحد أعظم النماذج الحضارية في العالم؟

واذا كان الأمر كذلك فلماذا لم ينفعنا ذلك التراث بالحفاظ على الموقع المتقدم الذي كان لنا؟ ولماذا لا ينفعنا اليوم كما نفع الأمة بالأمس؟

المشكلة كانت ولا تزال في كيفية التعامل مع التراث، الذي هو غير الارث. فهنـاك مـن يعتبر ان في التراث ما هو تقدمي، ومنه ما هو رجعي، وهناك ما هو مادي سـابق لـبعض أفكار اليوم، وهناك ما هو مثالي. وهناك من يرى ان جزءاً من التراث قد مات وجزءاً آخر لا يزال حياً. ان التعامل الانتقائي مع التراث من خلال تفتيته وتصنيفه يؤدي عملياً الـى قـراءة مؤدلجة للتراث. تخضع لغائية القارئ. وقد قام عدد من المفكرين بتقديم أكثـر مـن قـراءة ماركسية وليبرالية للتراث ولم ينتج عن هذه المحاولات مشروع نهضوي جديـد. بـل بقيـت مجرد قراءة تعبر عن تيار فكري يقرأ الماضي وفق قوالب معرفية ونظرية مسبقة. ان تراثـاً ضخماً وغنياً كالتراث العربي والاسلامي يمكن أن يحتوي على أفكار وتيارات يسهل تأويلهـا في أكثر من اتجاه. ومن البديهي ان المهارة في التأويل ليست هي الحل.

المشكلة اذن تبقى كيف نتعامل مع التراث والتجربة التاريخية بشكل منهجي صحيح.

ومن البديهي القول ان العرب والمسلمين لم يفشلوا في الحفاظ على تقدمهم لأنهم مـسلمون أو عرب. بل لأنهم توقفوا عن القيام بواجبات ومهمات ترك الاسلام لهم مسؤولية الوفاء بهـا. فقد امتلكوا أسس المنهج بالرسالة والوحي، وفهموا ان عليهم استكماله واستعماله. فقد تعلمـوا ان هناك قواعد وقوانين تضبط حركة الواقع، أما امر اكتشافها ومعرفتها وشروط اسـتخدامها فمنوط بهم. فقد قررت الرسالة بشكل واضح ان ماضي الأرض مسخّر للانسان ومتروك لـه اكتشاف القوى المحركة للواقع ومعرفة كيفية تسخيرها ومطابقتها لإرادته. لقد اثبتت التجربـة ان الانسان قادر ومسؤول عن تطوير واقعه.

هكذا كانت البداية ديناً يخاطب الناس كافة، في كل زمان ومكان، ويترك لهم مـسؤولية ان يتأملوا ويتعلموا ويكتشفوا ويغيروا واقعهم نحو الأفضل. فكان الاجتهاد في أمور الدنيا مفتوحاً، ما لم يكن هناك نص قطعي يتعارض ومصلحة المـسلمين والمجتمـع. اجتهـدوا وصـاغوا اجتهاداتهم في آراء وأفكار ومذاهب عديدة. وصار كل اجتهاد ينسب الى صاحبه وليس الـى الاسلام. لقد كان عندهم الجرأة ليتحملوا مسؤولية ما في اجتهاداتهم من قصور، فكانت حـافزاً لمزيد من الاجتهاد والتعديل.

لم تكن هذه الاجتهادات والمذاهب شاملة في المكان ولا عامة في الزمـان، والا اصـبحت دينا. لذلك هي اختلفت من مكان الى آخر ومن زمان الى آخر. وهو ما قام به صاحب كتـاب "الأم" الامام الشافعي. فعدل بعض اجتهاداته وآرائه عندما انتقل من العراق الى مصر. فكانت بعدها القاعدة الشرعية الشهيرة "تتغيّر الأحكام بتغير الأزمان". لقد امتد الاسلام الى مجتمعات مختلفة في واقعها ومدى تطورها. لذلك كانت الحصيلة الاجتهادية : مذاهب مختلفة وممارسات مختلفة أيضاً.

لقد نجح المسلمون في تطوير حياتهم يوم كان العلم والاجتهاد مثوباً ولو كان خاطئاً. يـوم كانت حريتهم في البحث واستنباط الحلول لمشاكل الواقع المتبدل – المتغير لا تحدها سلطة ما، أو عقدة خوف ونقص. لقد توقفوا عن التقدم عندما فقدوا حريتهم. فتقدم غيرهم وسبقهم.

فعندما حل الاستبداد والطغيان محل الشورى، ويوم أصبح للمذاهب قدسية النص القرآنـي، وعندما تحولت البيعة والاجماع الى ممارسات شكلية مصطنعة، ويوم استخدم القياس بـشكل متعسف لتبرير الظلم والامر الواقع، ويوم أغلق باب الاجتهاد، وكأن للاجتهاد بابـاً واحـداً – وجمدت المذاهب على مضامين كسبتها في مراحل ماضية وأصبحت بالتـالي قاصـرة عـن الإجابة بالحلول الصحيحة لمشكلات الواقع في مراحل تالية. هكذا شكّل قفل باب الاجتهاد من الناحية العملية استبداداً عائقاً أمام تطور المجتمعات العربية والاسلامية، لقد كان ما سبق كافياً ليشكل عوائق منهجية أمام استئناف المسيرة الحضارية للأمة.

وقد حدث الاصطدام التاريخي بين "عالمنا" والعالم الغربي في ظل هذه الظروف، وحـدث بنتيجة ذلك ان تسلم الغرب هذه المنطقة وهي مهزومة من الداخل، وليس له ان يدعي شـرف هزيمتها.

- **<u>الاستيعاب والتجاوز:</u>**

ربما كانت التجربة اليابانية تستحق دراسة خاصة في هذا المجـال. فاليابـان المهزومـة والمحطمة بالقنابل الذرية، تعيد بناء نفسها وتستأنف مسيرتها وتحقق طموحها بفرض نفـسها نداً لأي من الدول الكبرى. وهي بالرغم من امتلاكها للتكنولوجيا – الغربية في الأساس – إلا انها تفوقت على مصادرها ووصلت الى أبعد مدى في هذا المجال. وهي رغم ذلك لـم تفقـد خصوصيتها وهويتها الحضارية الخاصة. والسؤال لماذا استطاعت اليابان ولم نستطع نحن؟!

والاستعانة بابن خلدون ضرورية هنا، اذ يقول ان الـسيادة انمـا تكـون بالعـصبية. وان العصبية متى توفرت للجماعة، عملت على تماسكها أولاً ثم دفعتها لتحقيق السيادة ثانياً. وقـد توفر لليابان العصبية والمشروع النهضوي.

ان مشكلتنا الكبرى هي في غياب المشروع العربي النهضوي، الذي ينظر للحداثة على انها تطوير أصيل للواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. فالحداثة لا يمكن استيرادها في صناديق تحوي خرائط وموسوعات ومجلدات ولا يمكن نقلها بواسطة "خبراء" وبرامج كمبيوتر.

ان صياغة المشكلات التي تواجهنا على شكل ثنائيات متناقضة كالأصالة والحداثة، العروبة أو الاسلام، العقل أو النقل، الدين أو العلم، انما يعكس ميلاً للسجال والجدل من جهـة، كمـا يعكس تبسيطاً للأمور بحيث تفتح الثنائيات طريقاً للحل التوفيقي بشكل دائم.

ان الانعزال والتقوقع والانغلاق على الذات في عالم اليوم الذي تحول الى قريـة صـغيرة بحكم التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال، أمر مستحيل، كما ان الانسياق في طريق التبعية الغربية يفقدنا الخصوصية الحضارية ويحولنا الى مجرد هامش لحضارة الغـرب، ان عمليـة التحديث هي في مضمونها موقف الاستيعاب والتجاوز. استيعاب ما لدى المجتمع المتفوق من تراكم معرفي ومقدرة على التحكم في شؤون البيئة والطبيعة، واستيعاب اسرار التقنية الحديثة، والتجاوز بمعنى الإضافة النوعية المتناغمة مع الواقع وخصوصياته.

وليس عيباً أن نأخذ من حضارات الأمم وتجارب الشعوب ما يفيدنا، لكن العيـب ان نظـل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطي.

خلاصة القول ان اشكالية التراث والحداثة التي نحن بصددها، اصبحت اشكالية مصطنعة، استنفدت أغراضها، وتغير مضمونها ليتحول الى معنى جديد يقوم على التحرر في مواجهـة الالحاق والهيمنة وعلى الاعتراف بالآخر والحوار معه بدون انغلاق وجمـود، علـى قاعـدة الاستيعاب والتجاوز.